الشعر في أربل في ظل الأسرة البكتكينية بين ٥٢٦ - ٦٣٠ هـ

ناظم رشيد

تمهيد :

اشتهرت في القرنين السادس والسابع الهجريين مجموعة من المدن في انحاء العالم الاسلامي ، كان لملوكها وحكامها الشهرة الواسعة التي تضاهي شهرة الخليفة في بغداد ، حيث جمع بلاط بعضهم من العلماء والأدباء مالم يجمعه بلاط الخليفة ، والفت الكتب الضخمة والمجاميع الكبيرة في اكنافهم ، فكان لهم الدور الكبير في دفع مسيرة الثقافة العربية التي ابتدأها السلف العظيم الى مراحل بعيدة من الرقي والتقدم .

واحدى هذه المدن هي «إربل» التي كانت قلعة حصينة ضدّ الغزاةوالطامعين من التتر وغيرهم ، ومركزاً مهماً للعلم والأدب ، ومأوى أميناً للدارسين . ويعود الفضل في تقدمها ورقيها الى اسرة بكتكين التركمانية التي حكمت اربل من سنة ٥٢٦هـ الى سنة ٦٣٠هـ .

وسأوضح في هذا البحث الوجيز نشأة هذه الأمارة وانتهاءها ، ثم اعرج على الجانب الثقافي . مبيناً ازدهارها . ذاكراً أسماء أعلامها الكبار الذين خدموا الفكر الانساني . وأشهر من وفد اليها من أقطار العالم الإسلامي ثم اقف وقفة طويلة عند شعرائها والأغراض التي عالجوها ، واختتم كل ذلك بخاتمة موجزة عن ماخرج البحث به من نتائج .

الأسرة البكتكينية

كان الأمير زين الدين علي بن بكتكين التركماني ، الذي يدعى كجكعلي قائد جيش عماد الدين زنكي ونائباً عنه في الموصل واعمالها مدة إحدى وعشرين سنة ونصف سنة ، ثم سلمها الى قطب الدين مودود بن زنكي لما اصيب بالعمى والصمم ، وابقى لنفسه اربل (١) .

ولما توفي (٥٦٣هـ) كان الحاكم في اربل خادمه مجاهد الدين قايماز (٢)

---

(١) ينظر تفاصيل ذلك في التاريخ الباهر ص ١٣٥.

(٢) مجاهد الدين قايماز بن عبد الله الزيني، توفي سنة ٥٩٥ (الجامع المختصر ٩ : ٨).

فولى بعده ولده مظفر الدين كوكبري(١) ، وله من العمر أربع عشرة سنة ، ثم تآمر عليه ، وكتب محضراً بانه لايصلح للملك لصغره (٢) ، وأقام اخاه يوسف مقامه ، وكان أصغر منه .

خرج مظفر الدين من اربل وتوجه الى بغداد علّه يظفر بمعونة الخليفة المستنجد بالله ومساعدته في رد ملكه ، ولكن خاب أمله ، فعاد الى الموصل ومالكها يومئذ غازي بن مودود . فاتصل بخدمته وأقطعه سران (٣) ، فأقام بها مدة ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي وتزوج اخته الصغرى ربيعة خاتون وزاده صلاح الدين الرها وسميساط (٤) ، وشهد معه عدة معارك اظهر فيها شجاعة وبطولة وحسبه فخراً انه ابلى بلاء عظيماً في معركة حطين ، فقد ولاه صلاح الدين فيها قيادة الجيوش الشرقية ، اي جيوش الموصل والجزيرة .

وفي سنة ٥٨٦هـ استنجد صلاح الدين الأيوبي بملوك المسلمين على حرب الافرنج حينما احتلوا عكا ، فكان أحد القادمين لنجدته يوسف ، وهو يومئذ صاحب اربل ، فاحترمه السلطان صلاح الدين وأكرمه وأنزله في خيمته . وأكثر من ضيافته ، فأقام مدة لم تتجاوز بضعة أشهر ، ثم توفي اثر مرض شديد .

أعطى السلطان صلاح الدين أربل لمظفر الدين كوكبري ، واستنزله عن بلاده التي كانت بيده ، فمضى اليها واستقبله الناس فرحين ، لأنهم كانوا يتوسمون فيه الخير والاصلاح ، وقد سبقت اليهم أخباره وما قام من اعمال جليلة في المناطق التي حكمها ، وبطولاته الموقفة في حربه مع اخوانه المسلمين في بلاد الشام ، وتحققت ظنونهم فوجدوه الرجل الجدير لحكم البلاد الصالح لإدارة شؤون العباد فأحبوه واكرموه ، واطاعوا أوامره ونواهيه .

قام مظفر الدين بعمارة أربل ، وتأسيس المدارس ، وبنى مسجداً صرف عليه مبالغ طائلة ، تقوم الآن مئذنته الشاهقة البديعة غريبة تعكس للأجيال

(١) كوكبري: اسم تركي، معناه الذئب الأزرق (وفيات الأعيان ٤ : ١٢١) .
(٢) شذرات الذهب ٥ : ١٣٨.
(٣) حران: مدينة مشهورة وهي على طريق الموصل والشام والروم(معجم البلدان٢ : ٢٣٤).
(٤) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام(معجم البلدان ٣ : ١٠٦).
سميساط : مدينة على شاطيء الفرات في طرف بلاد الروم (معجم البلدان٣ : ٢٥٨).

آثاره الجليلة ، قال عن نفسه : «لما اخذت اربل آليت على نفسي ان اقسم مغلها ثلاثة اقسام : قسم انفقه في أبواب البر ، وقسم للجند وما يخصني ، وقسم ادخره لعدو يقصدني (١)» .

اهتم مظفر الدين بالشعائر الدينية ، وخاصة المولد النبوي الشريف ، ويقدر سبط ابن الجوزي(٢)من كان يحضره بثمانمئة الف،وما يصرف عليه ثلاثمئة الف دينار . والف احد الوافدين لمشاهدة هذا المولد . وهو الحافظ ابو الخطاب ابن دحية الأندلسي البلنسي كتاباً سماه« التنوير في مولد البشير النذير» اجازه على ذلك بألف دينار (٣) . واصبح هذا الكتاب شغل مظفر الدين الشاغل فكان يكثر من قراءته ويسمعه الى كل ضيف كبير يفد عليه . ويقرأه عليه بنفسه . وقد سمع ابن خلكان هذا الكتاب منه في ستة مجالس في جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين وستمئة . (٤)

حكم مظفر الدين بلاده حكماً عادلا ، ورعى حق الله في رعيته . ولم يأل جهداً في اسعادهم . ومنع الأمور المحرمة في الاسلام ان تقترف في امارته بحيث اصبح « لايمكن لأحد ان يشرب الخمر او يدخلها الى البلد (٥) » .

لقد كان مظفر الدين رجلا عظيماً ، متمرساً في حرب الأعداء ، اكتسب خبرة كبيرة من محاربته الصليبيين مع صلاح الدين في معركة حطين والسواحل الشامية ، وكان التتر يهابونه ويخشونه .ولو عمل الخليفة العباسي بنصيحته ، واهتدى برأيه لما اجتاحت جيوشهم العراق ، ولما اصابه دمار واحراق. قال الدواداري في حوادث سنة ٦٢٠هـ : «كتب مظفر الدين للخليفة يقول : ان هذا العدو عدو ثقيل ،وخلق عظيم ، لا يعلم عددهم الا الله تعالى عز وجل فابعث الينا جيشاً نلقى به هذا العدو ولو عشرين الف فارس ، ونحن

---

(١) مرآة الزمان ٨ : ٦٨. والمثل : الايراد.
(٢) نفسه ٨ : ٦٨.
(٣) البداية والنهاية ١٣ : ١٣٦.
(٤) وفيات الاعيان ٣ : ٤٤٩.
(٥) العسجد المسبوك ص ٣٣٧.

نتكل على الله تعالى ونلقاه بمعونته. فغلب على رأي الخليفة وزراء السوء ، وأثبتوا في ذهنه ان التتار لايدوسون له ارضاً ... فلم يرد الخليفة له جواباً . وقد كان التتار لما سمعوا بمظفر الدين تأخروا الى ورائهم ، فانه كان رجلا شجاعاً مقداماً » (١)

توفي مظفر الدين سنة ٦٣٠هـ ، وكان قد اوصى باربل للخليفة المستنصر بالله لأنه لم يخلف ولداً(٢) ، فتسلمها الخليفة ،وبذلك انطوت الصفحة المضيئة من حكم هذه الأسرة الكريمة .

الجانب الثقافي :

اهتمت الأسرة البكتكينية بالعلوم والآداب ، وشجعت الدارسين ، وبذلت لهم بسخاء ، وأنشأت لهم المدارس ، ووفرت لها المدرسين ، فانتجع مدينة اربل الكثيرون من كل حدب وصوب ، فخرجت من الخمول الذي ران عليها زمناً طويلا . ولكثرة من دخل هذه المدينة من الوافدين ــ طلاباً وأساتذة ــ ألف شرف الدين أبو البركات بن أبي الفتح أحمد المشهور بابن المستوفي آخر وزراء أربل على عهد مظفر الدين كتاباً كبيراً بأربعة مجلدات سماه : «نباهة البلد الخامل ومن ورد عليه من الأماثل » (٣) ، لأن أربل ظل بلداً خاملا لايأخذ بأسباب النباهة الا بعد منتصف القرن السادس الهجري . أي بعد أن أصبحت ملكاً لأسرة بكتكين التركمانية . واستمرت هذه النباهة حتى اجتاحها التترسنة ٦٣٤هـ ، فخربوها وقتلوا أكثر أهلها ، ولم ينج منهم ألا من لجأ الى القلعة واعتصم بها . وبذلك خفت ذلك اللألاء الذي لاح فترة من الزمن ، وعادت المدينة الى سابق خمولها .

---

(١) كنز الدرر ٧ : ٢٥٤.

(٢) تاريخ أبي الفداء ٣ : ١٦١.

(٣) كان هذا الكتاب يعد من الكتب المفقودة، وقد عثر أخيراً على الجزء الثاني منه في مكتبة جستر بيتي في دبلن بايرلندة رقم ٤٠٩٨، كتب سنة ٦٤١هـ، أي بعد أربع سنوات من وفاة المؤلف، وعدد أوراقه ٢٣١ ورقة(توجد في مكتبتي نسخة مصورة منه).

أن اهم المراكز الثقافية في عهد هذه الأسرة هي مدرسة القلعة التي أنشأها أبو منصور سرفتكين النائب الأول للأمير زين الدين على بن بكتكين ، والمدرسة القيمازية التي أسسها النائب الثاني مجاهد الدين قايماز ، ومدرسة مظفر الدين التي أنشأها مظفر الدين كوكبري . وقد اهتمت الأخيرة بتدريس الفقهين الحنفي والشافعي . وكان يدرس فيها أيضاً : التفسير والحديث والنحو والصرف والمنطق والتاريخ والادب . ولم تكن هذه المدارس أقل شأناً من المدارس القائمة آنذاك في المدن المشهورة كدمشق والموصل وحلب والقاهرة .

لقد أرادت هذه الاسرة باهتمامها هذا ان تخدم أبناءها وتزيد من ثقافتهم من جهة ، واكتساب الشهرة بين الملوك الذين كانوا يتنافسون في اجتذاب العلماء والادباء من جهة أخرى .

وكان للحركة العلمية والأدبية النشيطة في هذه المدينة ، واحتضانها العلماء والأدباء واكرامهم وتقديم كل مستلزمات الراحة والاقامة لهم أثر كبير ودافع عظيم في اقبال أبنائها على الدرس والتحصيل ، فلم يمض وقت طويل حتى ظهر منهم رجال عظام وصلوا الى مراتب عليا . واشتركوا مع اخوانهم في البلدان الاسلامية الأخرى في اغناء المكتبة العربية بثروة فكرية كبيرة تناولت مختلف جوانب المعرفة .

فمن العلماء : ابو الفضل الياس بن جامع بن علي الإربلي (ت٦٠١هـ) درس في أربل ثم «قدم بغداد وتفقه بالمدرسة النظامية وسمع الحديث ، وعاد الى بلده ، وخرج التخاريج ، وجمع المصنفات . وروى هناك ، وتفرد بكتابة الشروط ، وكان فيه فضل وأدب (١) . وأبو محمد جعفر بن محمد الاربلي (ت٦٠٩هـ) «وكان عالماً متفنناً لعدة علوم منها الفقه على المذهب الشافعي — رحمه الله — والفرائض والحساب والهندسة والأدب والنجوم ومعرفة علوم القرآن المجيد »(٢) . وابو القاسم نصر بن عقيل بن نصر الاربلي (٣)

(١) الجامع المختصر ص ١٦٥.
(٢) الجامع المختصر ص ٣٤٣.
(٣) شذرات الذهب ٥ : ٨٦ .

(ت٦١٩هـ)، وعلى بن أبي القاسم بن علي الاربلي (ت٦٢١هـ)«وكان عنده فضل ومعرفة في النحو والفقه والعروض ... أخذ على سيبويه في عدة مواضع» (١). والعلامة شمس الدين أحمد بن الحسين الإربلي الضرير المشهور بابن الخباز (ت٦٣٩هـ) وهو صاحب التصانيف ، وشرح الألفية لابن معطي ، وكان استاذاً بارعاً في النحو واللغة والعروض والفرائض » (٢) .

ومنهم من ولد ونشأ في أخريات أيام هذه الامارة. وظهرت مواهبه بعد زوالها مثل: يحيى بن محمد أبي زكريا الاربلي (٣) (ت٦٨٠هـ) . والامام العلامة سلار بن الحسن الاربلي(٤) (ت٦٧٠هـ). والجنيدبن عيسى الاربلي (٥) (٦٨٠هـ) ، والقاسم بن ابي بكر القاسم الأربلي (٦) (ت٦٨٠هـ) . والشيخ مجد الدين أبي العباس أحمد بن علي بن ابي غالب الاربلي النحوي (٧) (ت٦٧٥هـ) . وتقي الدين عمر بن يعقوب الاربلي (٨) (ت٦٧٣هـ)

ومن الأدباء : موفق الدين الاربلي (ت٥٨٥هـ) «وكان اماماً مقداماً في علم العربية ، مفتناً في أنواع الشعر. ومن أعلم الناس بالعروض والقوافي وأحذقهم بنقد الشعر ، وأعرفهم بجيده من رديئه ، وأدقهم نظراً في أختياره، وهو شيخ ابن المستوفي صاحب تاريخ اربل (٩)

وأحمد بن عبد السيد المشهور بالصلاح الاربلي (ت٦٣١٢هـ) ، وكان حاجباً عند مظفر الدين كوكبري فتغير عليه واعتقله، ثم أخرج عنه ، فخرج

---

(١) بغية الوعاة٢ : ١٨٤.
(٢) نكت الهميان ص ٩٦.
(٣) ذيل مرآة الزمان٤ : ١٣٣.
(٤) شذرات الذهب ٥ : ٣٣١.
(٥) ذيل مرآة الزمان٢ : ٣٦٥.
(٦) ذيل مرآة الزمان ٢ : ١٢١.
(٧) شذرات الذهب ٥ : ٢٨٨.
(٨) شذرات الذهب ٥ : ٣٤١.
(٩) وفيات الأعيان ٥ : ٩.

من اربل قاصداً الشام ، ومنها الى مصر ، فأتصل بالملك الكامل وعظمت منزلته عنده ، ثم تغير عليه واعتقله ، فعمل دوبيتاً ، واملاه على أحد المغنين فغناه عند الملك ، فاستحسنه ، وسأله : لمن هذا ؟ فقال : للصلاح ، فأمر بالافراح عنه ، والدوبيت :

ما أمر تجنيّك على الصبّ خفي أفنيت زماني بالأسى والأسفِ
ماذا غضبٌ بقدر ذنبي ولقد بالغتَ وما أردتَ الاّ تلفي

وبقي على رفعة شأنه الى ان توفي بالرّها ، له ديوان شعر (١)

اما الشاعر عيسى بن سنجر الاربلي المعروف بالحاجرى (ت ٦٣٢) فقد ترك لنا ديوان شعر(٢) تغلب عليه الرقة والعذوبة ، اعتقله مظفر الدين في قلعة أربل ، فأرسل اليه قصيدة مطلعها :

قيد اكابده وسجن ضيـــــــق يارب شاب من الهموم المفرق

فأطلق سراحه ، واتصل بخدمته . وتقدم عنده ، وتزيا بزي الصوفية وترك لنا بالاضافة إلى ديوانه ، مسارح الغزلان الحاجرية (٣) ونزهه الناظر وشرح الخاطر (٤) والحجازيات في مدح خير البريات (٥) .

ومن اعيان الادب مجد الدين ابن الظهير الاربلي(ت ٦٧٧هـ) له مؤلفات منها : تذكرة الاريب وتبصرة الاديب(٦) ومختصر أمثال الشريف الرضي ، وله ديوان شعر . جمع ابن الظهير بين الفقه والشعر ، وله القصائد الرائعة ، منها القصيدة المشهورة التي عارضها ابن نباتة المصري وقد ابدع فيها ، اولها :

مضت لنا بالحمى والبان اوقات صفت وصفت فيها المسرات

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ١٨٤ . وانظر مرآة الزمان ٨ : ٦٤٣ .
(٢) له طبعتان : الأولى سنة ١٢٨٠ بمصر(طبع حجر) ، والثانية بمطبعة شرف بمصر سنة ١٣٠٥ (طبع حروف).
(٣) نسخة منه في المكتب الهندي بلندن رقم ٨٢٩ .
(٤) نسخة منه في برلين رقم ٨١٩٨ .
(٥) نسخة منه بدار الكتب المصرية(انظر فهرست الدار ٣ : ٣٧٨) .
(٦) نسخة منه في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٣١٢٩ .

اما قصيدة ابن نباتة المصري فأولها :

قضى وما قضيت منكم لبانات متيم عبثت فيه الصبابات (١) ،

وسئل شهاب الدين محمود الحلبي عن هاتين القصيدتين أيهما أجود ؟ فاجاب :

هاتان قصيدتان بديعتان في بابهما ، فريدتان في اقتضائهما المعاني الجليلة وانتصابهما ، والثانية ارجحهما عندي وافضلهما في اعتباري ونقدي لتمكن الفاظها ومعانيها الرزينة ، وقواعد ابياتها . وقوة مأتاها (٢) .

اما اسعد بن ابراهيم المشهور بمجد الدين النشابي (ت ٦٥٧ هـ) فهو شاعر كبير (٣) وكاتب بليغ ، اشتغل في ديوان الانشاء عند مظفر الدين كوكبري واصطحبه سنة ٦٢٨هـ حين توجه إلى بغداد ، وعندما دخل مظفر الدين على الخليفة المستنصر بالله امير المؤمنين ابي جعفر بن الامام الظاهر بامر الله تقدم مجد الدين بين يدي الخليفة وحياه بقصيدة طويلة نالت اعجابه (٤) .

واشتهر بقرض الشعر الحسن بن محمد المعروف بالعز الاربلي الضرير (ت ٦١٠هـ) ولم يصل الينا من شعره الا عدة قصائد ومقطوعات من ذلك هذه الابيات الجميلة التي اجاب بها عن سؤال تلك الكاعب التي تعجبت من ضرير يعشق الجمال دون رؤيته ، ولاعجب في ذلك وقد سلك الطريق الذي سلكه بشار ابن برد الضرير ، فانه وجد بديلا وعوضا . انه الفؤاد ، واما البصر فهو الطريق اليه فيقول : —

وكاعبٍ قالتْ لأترابها ياقوم ماعجبَ هذا الضريرْ

---

(١) ديوان ابن نباتة المصري ص ٦٧.

(٢) الجواهر المضية ٢ : ٤٠١.

(٣) وصل الينا ديوان شعره ، وهو محفوظ في المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٦٩٩٤ ، وقد اطلعت على مصورة هذا الديوان المحفوظ بمكتبة المجمع العلمي العراقي رقم ٢٢٦ فوجدته خاصاً بمدح الخليفة المستنصر بالله العباسي ، ويبدو لي انه جزء من باب المديح في ديوانه الكبير الذي لم يصل الينا لأنه مخروم الاول والآخر ولايعرف مقدار الخرم أو أنه جزء من مجموع قصائده التي مدح بها الخليفة المستنصر بالله والتي تكون منها ديوان صغير .

(٤) انظر ذلك مفصلا في ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٢.

هل تعشق العينان مالاترى فقلت والدمع بعيني غزير
ان كان طرفي لايرى شخصها فانها قد صورت في الضمير (١)

ان شعر العز الاربلي محكم البناء ، جيد السبك، عالي الطبقة ، يقول ابن شاكر الكتبي : وشعر العز الاربلي كله جيد(٢) وقال اليونيني : « وله نظم حسن جيد .(٣)»

ومن شعراء اربل الشاعر الصوفي علي بن عثمان الاربلي (ت ٦٧٠هـ)، وله قصيدة طويلة في كل بيت منها نوع من البديع (٤) . وابو الربيع سليمان بن بليمان الاربلي(٥)(ت ٦٨٦هـ)وجمال الدين طه بن ابراهيم الاربلي(ت٦٨٩هـ) وقد جاوز الثمانين (٦). وخشترين بن تليل الحكمي الاربلي (٧) (ت ٦١٩هـ). وابو بكر محمد بن ابراهيم الملقب بعرش الدين الاربلي (ت ٦٧٩ هـ) وكان شاعراً مقتدرا ومن نظمه «الألفية في الالغاز المخفية» وهي الف لغز في الف اسم (٨)،وابو العز يوسف بن النفيس الاربلي المشهور بشيطان الشام (ت٦٣٨هـ) وكان يسلك في شعره مسلك ابن حجاج في السخف والهزل (٩) وغرس الدين غازي الاربلي (١٠) (ت ٦٧٩هـ) .

ومن شعراء النصارى باربل جيورجيس وردا الاربلي«انشد الشعر البليغ والاغاني المطربة ، لكنه يؤاخذ في شعره على استعماله كثيرا من الالفاظ اليونانية ... وتتنوع الموضوعات في قصائده فيصف في بعضها حصار اربل والجنود التترية

(١) فوات الوفيات ١ : ٣٦٤.
(٢) فوات الوفيات ١ : ٣٦٥.
(٣) ذيل مرآة الزمان٢ : ١٦٥.
(٤) فوات الوفيات ٣ : ٣٩.
(٥) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٧٢
(٦) شذرات الذهب ٥ : ٣٥٧.
(٧) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٢٨.
(٨) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٧٩.
(٩) وفيات الأعيان ٧ : ٣٤.
(١٠) تالي وفيات الأعيان ص ١٢٧.

وغير ذلك من الحوادث التاريخية الخطيرة وقد خصص قسما كبيراً من قصائده في مديح السيدة العذراء ، فأجاد في هذا الباب وفاق من جاراه في هذا الميدان . (١) »

ومن تلاميذه خاميس القرداجي الاربلي ، ويمتاز شعره«بالعذوبة والسهولة والحلاوة والجزالة،وهو عند الكثيرين اشهر من عبد يشوع الصوباوي صاحب الديوان المسمى فردوس عدن» (٢) .

لقد اثمرت مدارس اربل ومساجدها تلك الثمرات الطيبة التي ذكرنا طرفاً منها . وإلى جانب ذلك شاركت المجالس والندوات الأدبية والعلمية في ازدهار الثقافة ورقيها ، فانهم اتخذوها غذاء للعقل وتسلية وترفيهاً للنفس من مشاغل الحياة وهمومها . وكان لمظفر الدين ولع كبير بمجالسة العلماء والأدباء والاستماع اليهم . يذكر سبط ابن الجوزي ان مظفر الدين سمع مسند الامام احمد بن حنبل كله من المحدث حنبل بن عبدالله بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٤هـ(٣)وله ميل كبير إلى دراسة التاريخ وقراءة كتبه والاستماع إلى رواته. يقول ابن خلكان :«انه كان يميل إلى علم التاريخ وعلى خاطره شيء منه (٤) وكان يحضر الندوات الأدبية التي كانت تعقد في دور الأدباء وكبار رجال الدولة ممن يتذوقون الأدب : امثال : ابن المستوفي ،ومجد الدين التشابي ، وعيسى بن سنجر الحاجري.او يحضر المجالس الدينية ويستمع إلى العلوم الاسلامية من فقه وتفسير وحديث التي كانت تعقد في مسجد القلعة والمسجد الذي شيده بجوار مدرسته في ربض اربل .

(١) تاريخ الموصل ٢ : ١١١. وجاء فيه ان ديوان جيورجيس وردا الاربلي عني بتحقيقه المستشرق الألماني هزيخ وطبع في لايبزك سنة ١٩٠٤.

(٢) تاريخ الموصل ٢ : ١١١. وقال: « و من ديوانه نسخ خطية عديدة في مكاتب الشرق والغرب، وشعره في الدين والنفس والتوبة، وفيه التقويات على شكل الشعر الصوفي، والهجويات يهجو مواطنيه الأرابلة، والاخوانيات والخمريات والغزليات والرثاء».

(٣) مرآة الزمان ٨ : ٥٣٧.

(٤) وفيات الأعيان ٤ : ١١٩.

وكان امراء اربل وادباؤها يحتفون في ندواتهم بالوافدين اليهم من الشعراء، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : اسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) وقد كتب إلى اخيه ابي الحسن الساكن بمدينة شيزر بالشام في صدر كتاب :

وان امرأ اضحى باربل داره وفي شيزر احبابه وشجونه
لغير ملوم في الحنين اليهم ومعذورة ان تستهل دموعه (١)

وابا الحسن علي بن الحسين المعروف بشميم الحلي (ت ٦٠١ هـ)، ويوسف بن الحسن المعروف بابن مجاور (ت ٦٠١ هـ) ويوسف بن مواهب الحظيري (ت ٦٠٣هـ) وجمال الدين ابن السنينيرة (ت ٦٢٦ هـ) قال ابن خلكان : «وكان قد جاءنا ونحن في بلادنا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة الشيخ جمال الدين ابو المظفر عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن السنينيرة الواسطي وكان من شعراء عصره، نزل عندنا بالمدرسة المظفرية وكان قد طاف البلاد ، ومدح الملوك وأجازوه الجوائز السنية ، واذا فعد حضر عنده كل من له عناية بالادب وتجري بينهم محاضرات ومذاكرات لطيفة» (٢) .

وشرف الدين ابن عنين (ت ٦٣٠ هـ) وعز الدين ابا رواحة الأنصارى (ت ٦٤٦ هـ) وعلي بن محمد بن الرضا الموسوي الطوسي المعروف بدميرخان (ت ٦٥٥هـ) والملك الناصر داود بن عيسى الايوبي (ت ٦٥٦هـ) ويوسف بن عبد الرحمن المعروف بابن الجوزى (ت ٦٥٦هـ) وعثمان بن محمد بن عبدالله بن أبي عصرون (ت ٦٥٨ هـ) .

ويعد مجلس شرف الدين ابن المتوفى من أعمر المجالس واكثرها ارتياداً، فانه لم يكن يدع احداً من الفضلاء يصل إلى اربل الا بادر إلى اكرامه واستضافته(٣) وابن المستوفى اربلي المولد والمنشأ ولد في منتصف شهر شوال سنه ٥٦٤هـ، وهومن بيت كبيرمشهور بالعلم والادب ،تولى والده وعمه صفي الدين ابو الحسن

(١) وفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ .
(٢) وفيات الأعيان ١ : ٢١٥ .
(٣) أنظر ماقاله ابن الشعار عن ابن المستوفي في كتاب وفيات الأعيان ٧ : ٢٥ .

علي بن المبارك منصب الاستيفاء في اربل ، وكان عمه هذا يتقن اللغتين العربية والفارسية ، فنقل كتاب «نصيحة الملوك» لحجة الاسلام الغزالي إلى اللغة العربية ، وكان الغزالي قد الف الكتاب باللغة الفارسية وقد شغل ابن المستوفي منصب الاستيفاء في اربل حتى سنة ٦٢٨ هـ قال ابن خلكان : «كان جم الفضائل عارفاً بعدة فنون ، وكان ماهراً في فنون الادب من النحو واللغة والعروض والقوافي وعلم الديوان وحسابه وضبط قوانينه على الاوضاع المعتبرة عندهم ، جمع لاربل تاريخاً في اربع مجلدات ... وله كتاب «النظام في شرح شعر المتنبي وابي تمام (١) وكتاب «اثبات المحصل في نسبة ابيات المفصل» في مجلدين تكلم فيه على الأبيات التي استشهد بها الزمخشري في المفصل وله كتاب « سر الصنعة» وسمعت منه كثيرا وسمعت بقراءته على المشايخ الواردين إلى اربل شيئا كثيرا ، فانه كان يعتمد القراءة بنفسه ، وله ديوان شعر أجاد فيه (٢) .

الشعر :

ان القسم الاكبر من الدواوين الشعرية التي تذكرها المصادر لشعراء اربل ضاع مع ماضاع من تراثنا العظيم ،وما بقي منها غير مطبوع ماعدا ديوان حسام الدين الحاجري الذي يفتقر إلى ابسط قواعد التحقيق. وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على ماأوردته كتب التاريخ والادب من قصائد ومقطوعات .

لقد ازدهر الشعر في ظل الاسرة البكتكينية وراج سوقه ،فان الشعراء طرقوا ابواب الوصف والفخر والغزل ،كما طرقوا ابواب المديح والهجاء والشكوى والعتاب والاستعطاف ، ولم تخل اشعارهم من الحكم والامثال وكل مايقال عن الشعر في هذه الامارة او يظن من جديد ، ليس في الواقع بجديد وانما هو امتداد لما كان عليه في العصور العباسية السابقة بل تكرار لمعانيهم واخيلتهم

---

(١) وصل الينا منه جزءان ، الأول في مكتبة سوهاج في صعيد مصر رقم ١٣٥ ، والثاني في مكتبة يني جامع في استنبول رقم ١٠١٥. ولم يعثر إلى الآن على الجزء الثالث الذي يتم به الكتاب.

(٢) وفيات الأعيان ٤ : ١٤٧.

الا ماندر ، وسأتناول توضيح ذلك بايجاز .

من الاغراض المهمة التي تطالعنا في شعر هذه الامارة هو الغزل ، الذي أفرد له الشعراء القصائد والمقطوعات ، واستهلوا به النظم في فنونه المختلفة. ومما يلفت النظر فيه كثرة عودة الضمير إلى المذكر ، وهناك دلائل تدل على ان الاغلب فيه يراد به المذكر الحقيقي . ويؤيدنا في هذه الدعوى سيرة عدد من الشعراء وعلى رأسهم ابن خلكان الذي وقع اسيراً في حب ابن الملك الزاهر صاحب حماه ، ونظم فيه قصائد كثيرة . ومن كثرة انتشار الشذوذ الجنسي المقيت نرى العز الاربلي يتهم شخصا يدعى ابن ابي زهران بانه يدعو اصحابه اليه ويرغبهم فيه :

وقال : السلام على من زنى ولاط وقاد لإخوانـــه
فردّوا جميعاً عليه السلام وكـــل يترجـــم عن شانـه
وقال يجوز التداوي بهـا وكل عليل بأشجانـــه(١)

من دواعي هذا الانحراف الخلقي كثرة الغلمان من الافرنج الذين امتازوا بجمال مفرط ، فإن جيوش اربل شاركت في عده معارك في بلاد الشام وأوقعت خسائر جسيمة بالافرنج ، وأسرت منهم اعدادا كبيرة « وأصبح هؤلاء بملاحتهم بوضع قربى من الناس ، حتى ان الامراء والسلاطين ، بل الفقهاء والعلماء لم يزعهم الدين والتقية عن ان يصطحبوا الغلمان الصباح الوجوه في مجالسهم ، ولم يروا عيباً او بأسا في ان يختص احدهم بواحد او اثنين منهم لمرافقته في خلواته يستعملهم لطعامه ووضوئه(٢)» يضاف الى هذا ان كثيراً من رجال الحرب كرهوا الزواج واعرضوا عنه ، لأن الحروب الصليبية التي لم تكن نارها تخمد الا لتعود إلى الاشتعال من جديد منعتهم من الاستقرار الذي يترتب عليه تكوين الاسرة . واخيراً اعباء الحياة الثقيلة وسوء الحالة الاقتصادية ، والمجاعات المتوالية ابعدت الكثيرين من دخول الحياة الزوجية .

---

(١) فوات الوفيات ١ : ٣٦٣ .
(٢) الأدب في العصر الأيوبي ص ٣٨

وقد تصدى كثير من الكتاب لمحاربة هذا الشذوذ والحملة على انصاره والداعين اليه . ولم يرض مظفر الدين بهذا الخلق الشائن ، فحارب فاعليه والقى الكثيرين منهم في سجن كرخيني (١) .

اما الغزل بالمؤنث فهو نادر(٢) بل لانجد له اثرا عند فريق كبير من الشعراء وكأنه محرم عليه ان يلهج باسم امرأة ،او يصف هيامه وولهه بها .ولايعقل بأنهم نسوا المرأة وابطلوها من حياتهم ، ولم يتعلق قلب احدهم بحبها ، وربما كان احتجابها وحجرها في دارها ، وعدم السماح لها بالمخالطة والمجالسة حتى المقربين منها ، سبباً دون ان يتغزل بها الرجل صراحة حفظاً لسمعتها وخشيةً من أهلها فالتجأ إلى الغزل بالمذكر واتخذه وسيلة يلمح بها لحبيبته عن حبه ومودته لها .

ان الشعر ماكان ليروج ، ولايقبل عليه الناس الا اذا كان مشتملا على شيء في هذا الغرض وكان من الشعراء من يضطر إلى القول في هذا الموضوع ، وهو مكره . قال ابن الوردي :

ما المرد اكبر همي ولانهايةُ علمي
ولست من قوم لوطٍ حاشا تقاي وحلمي
وانما خرج دهري كذا فنفقت شعري (٣)

ان الغزل بالمذكر يصف الغلام في اعضائه كما توصف المرأة في قدها وخدها وخصرها وأردافها وثناياها وشعرها وعينيها ، حتى في غنجها ودلالها ووصفوا الحب والهيام والترصد واللحاق في اللقاء كما وصفها الشعراء المجانين في حب النساء ، وافتتنوا بحسن منظره وروائه وسحر طرفه ومبسمه كما يفتتن الرجل بالمرأة الجميلة الساحرة . انهم تغزلوا بالمذكر ولكنهم لم ينحدروا إلى المعاني المبتذلة الرخيصة التي نجدها عند ابي نواس وابي الحسن والسلامي والخبز أرزي وابن حجاج وابن سكرة الهاشمي . فهذا قاضي اربل جعفر

(١) كرخيني : قلعة حصينة على تل عال بين داقوق واربل(معجم البلدان ٤ : ٤٥٠.
(٢) انظر ديوان الحاجري ص ١٦.
(٣) الحروب الصليبية ص ٢٥٥.

بن محمد يطلب من الاخرين ان يكفوا عن لومهم وعذلهم في حبه لذلك البدر الجميل الذي توارت الشمس عنه خجلا . فان الحاظه افتك من السيف المرهف ؛ وريقه افعل من الخمر السلاف الممزوج بالعسل :

طلَّ دمي بالفتور والكحـل فلا تلمني وكف عن عذلي
آليتُ لاأسمع الملام ولا اركن في حبه إلى ملـــــل
بدر اذا مابدا مقابله الشمـ ـس توارت عنه مـن الخجل
اذا ترشفت ريقه سحراً قلت : سلاف يعـل بالعسل
الحاظه في حشاي افتك من سيف علي في وقعه الجمـل (١)

وان قلب ابن الظهير الاربلي مقيم على الجمر ، لما وقع في حب غرير من الاتراك تخجل البيضُ القواضب امام الحاظه الفتاكة والرماح اللدنة تجاه عطفه النحيف المضمر :

غريرٌ من الاتراك زنجي خالـه كقلبي مقيمٌ من هواه على جمر
إذا ازورَّ سخطاً او تلفت راضيا أمات واحيا بالقطوب وبالبشر
وان سل سيف اللحظ أوهز عطفه فياخجلة البيض القواضب والسمر (٢)

وهذا قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان يقع في شباك حب ابن الملك الزاهر صاحب حماه ، وينظم فيه قصائد كثيره تنم عن لوعة وعذاب ، فها هو ذا يقسم بذلك الوجه النير الجميل ، وبالطرة البارزة السوداء ، والقامة الفارهة ، والمبسم الوسيم ، والدر النظيم . فهو يخشى من ألسن الناس وعيون الحراس ، فيطلب منه ان يطفىء حرقته ، ويشفي غلته ، قبل ان يكشف القناع ويفتضح امره بين الاسياد والرعاع :

قسماً بوجهك وهو بدرٌ طالعٌ وبليل طُرتك التي كالغيهب
وبقامة لك كالقضيب ركبتُ من أخطارها في الحب اعظم مركب
وبطيب مبسمك الشهي البارد الـ ـعذب النمير اللؤلؤي الأشنب

(١) الجامع المختصر ص ٢٤٣.
(٢) فوات الوفيات ٣ : ٣١٠.

لو لم اكن في رتبة ارعى لها ال معهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت ستري في هواك ولذلي خلع العذار ولج فيك مؤنبي
لكن خشيت بأن تقول عواذلي : قد جن هذا الشيخ في هذا الصبي
فارحم فديتك حرقة قد قاربت كشف القناع بحق ذياك النبي
لاتفضحن بحبك الصب الذي جرعته في الحب اكدر مشرب (١)

وبعضهم لم يكف عن الغزل بالمذكر حتى وقد أدركته الشيخوخة فهذا المنشيء الاربلي يهيم شوقاً — وقد جاوز الثمانين — بغلام يفوق الظباء في جيدة وطرفه، والغصن الغض في لينه وطوله ، والقمر المنير في حسنه وبهجته والبرق في وميض مبسمه :

ولولا معان فيك اوجبن صبوتي لما كنت من بعد الثمانين مغرما
كلفت بساجي الطرف احوى مهفهف يميس فينسيك القضيب المنعما
يفوق الظبا والغصن طرفاً وقامة وبدر الدجى والبرق وجها ومبسما(٢)

ولهم في هذا الغزل معان طريفة ، ولمحات ظريفة، اسمع مايقوله موفق الدين الاربلي في غلام اسمه السهم وقد التحى .

قالوا التحى السهم، قلت: حصن حشاك فالآن لايطيش
فالسهم لاينفذ الرمايا الا اذا كان فيه ريش(٣)

وانظر إلى ماقاله ابن المستوفي في غلام ، فان يده تعلقت بعذاره وخدّه ، تارة يجني وتارة يقبل ، ثم خالطت زفراته انفاسه لما ضمهما الليل ، ولكن لم يدم ذلك فان داعي الصبح قد هتف غيظا وحسداً :

علقت يدي بعذاره وبخده هذا اقبله وذا اجنيه
لو لم تخالط زفرتي أنفاسه كانت تنم بنا إلى واشيه

(١) فوات الوفيات ١ : ١١٢.
(٢) فوات الوفيات ٣ : ٥٩.
(٣) وفيات الأعيان ٥ : ١١.

حسد الصباح الليل لما ضمنا غيظا ففرق بيننا داعيه (١)

ويصور مجد الدين النشابي رشاقة محبوبه تصويراً بديعاً ، فهو نحيف ضامر لايفصل بين خصره وردفه الا حزام صغير ومع ذلك فهو قوي يرد جيوش عشاقه ويرديهم صرعى برمح خده القاتل :

شكا خصره من ردفه فتراخيا بفصلهما بند القباء المكتم
ورد جيوش العاشقين لأنه أتاهم بخط العارض المتحكم(٢)

ويبث ابن نجا الاربلي شكواه من الحبيب الذي اصم اذنيه وكأنه لايسمع بعد ان وقع اسير سجنه الذي لايبرح عنه ، فالبغض سجيته ، والقسوة طبيعته والقطيعة ديدنه ، وقد نفد صبره وتزاحم وجده :

تذللت لو ان التذلل ينفع وافرطت في الشكوى لو انك تسمع
وامسى خضوعي للحبيب سجيتي وهل نافعي للحب اني اخضع
ومن عجب اني بحبك مولع وانت ببغضي والقطيعة مولع
نصيبك مني الحب والوصل كله ومنك نصيبي البغض والهجر اجمع
فؤادك مما بي من الشوق فارغ وقلبي ملآن من الحزن موجع
ووجدي وصبري في هواك تحالفا فوجدي مقيم واصطباري مودع(٣)

ويصف لنا عرش الدين الاربلي محبوبه الجميل ، وهيامه به فهو مريض الاجفان ، كأنه وسنان ، اسدل عذاره فوق خده الاسيل ، الحاظه واسعة تطلق السهام فتصمي قلوب الاقوياء ، ثناياه حلوة يتخللها رضاب يشفي غليل الاصدياء.

ومريض الاجفان بلبل عقلي بعذار من فوق خد اسيل
جؤذري اللحاظ حلو الثنايا طاب سقمي في حبه ونحولي
مقلة الروم من بني الروم رامٍ بسهام تصمي قلوب الفحول
ماعليه لو جاد لي برضاب من لماه عساه يشفي غليلي (٤)

---

(١) وفيات الأعيان ٤ : ١٤٩.
(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٣.
(٣) ذيل مرآة الزمان ١ : ٥٠٤.
(٤) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٨٠.

هذه هي ابرز المعاني التي نجدها في اغلب قصائدهم الغزلية ، فهي لاتعدو عن وصف جمال المحبوب وهيامهم به ، وولهم فيه ، وبيان آلام الهجران ، ومرارة الحرمان ، وطلب الرأفة بالحال ، والاسراع في الوصال بلغة بعيدة عن الفحش والبذاءة ، والابتذال التي ينبو عنها الذوق. والامر الذي يلمسه القارىء في غزلهم هو اختيارهم للبحور القصيرة والمجزوءة واستعمالهم الكلمات السهلة المأنوسة التي تصل عند بعضهم إلى اللغة العامية واكثارهم من المحسنات البديعية .

وموقع الغزل في قصائد الشعراء يختلف بأختلاف الشعراء، فمنهم من افرد له قصائد ومقطوعات مستقلة ومنهم من جعله في مطلع قصائده ،واتخذه وسيلة يمتطيها للوصول إلى غرضه الأصلي وقد اطال بعضهم فيها واستغرقت اكثر من نصف القصيدة . فهذا حسام الدين الحاجرى يمدح الامير ركن الدين أحمد بن الامير شهاب الدين باربل ، فيبدأ قصيدته بذكر الديار الحجازية والتغزل بالمقل الواسعة المكحولة التي سلبت فؤاده، والطلب من سائق العيس الذي اسرع في سيره لقطع المفاوز والقفار ان يعرج على رامة ليرى دار الحبيبة ومن ثم يلقي عليها تحيته :

لي بالعقيق ، سقى العقيق غمامة ... قلب أسير ماله من فاد
سلبته مني يوم رامة مقلة ... مكحولة أجفانها بسواد
ياسائق الوجناء غير مقصرٍ ... يطوي المفاوز من ربى ووهاد
مالي اليك سوى التحية حاجة ... تلقى سعاد بها ودار سعاد
عرِّجْ برامة إنَّ رامة مُنتهى ... أملي وغايةُ بُغيتي ومُرادي
لله صب بالعراقِ متيم ... ظامٍ الى ماءِ المحصّب صادي

ويطيل بعدها وصف ذلك الرشأ الذي يصمي قلوب العباد ، بسهام الحاظه الحداد ، ويكويها بجمر خدّه الوقّاد . وينتقل بعدها الى وصف حاله ، وما يعاني من فقره ومآله ويطلب من الممدوح أن يسعفه ويمدّ له يد عونه ومساعدته :

بأيُّها المولى الذي عن كفّهِ ... يُروى حديثُ الجود بالإسنادِ

اشكوك حالا لارميت بمثلها لاتبتلي بشماتـــة الحساد
حاشا سجيتك الكريمة ان تحد عن منهج الاسعاف والاسعاد (١)

وهذا مجد الدين النشابي يمدح الملك المنصور زنكي بن ارسلان شاه ، ويبدأ قصيدته بوصف الشادن الذي يبعث البهجة والسرور لكل من يراه ، فإن عذاره حرير ، وخدّه جنة ، وثناياه لجين :

بابي شادن تبدى فأبدى من محياه بهجـة وسـرورا
وعذار في ذلك الخد ابدى ببها الحسن جنة وحريرا
وثنايا كأنها من لجين قدروهـــا في ثغره تقديرا

ولو سرحت طرفك في ذرى الممدوح فلا ترى فيه بؤسا ولامن يعاني زمهريراً وشمسا . فانه يبيح المال والطعام ويكسو الفقراء والايتام :

سرح الطرف في ذراه ترى ثـ ـم نعيماً وملكـاً كبيرا
لم ير النازلون في ظله المعـ ـمور شمساً يوماً ولازمهريرا
ويبيح الطعام والمال كم عـ ـم يتيماً بزاده واسـيرا (٢)

وهذا سليمان بن بليمان الاربلي يمدح الملك الناصر : صلاح الدين يوسف ويهنئه بعيد الاضحى بقصيدة عدتها تسعة واربعون بيتاً ، خصص الابيات العشرين الاولى لوصف المحبوبة الذي يخجل البدر حسنه فاذا رنا تغار الظبية منه واذا تثنى تحسده العسالة الذبل ، وينتقل بعدها إلى وصف الممدوح الذي تهابه ملوك الارض فان عقله راجح وحكمه ناجح ، ونائله عميم وعطاءه جسيم :

طوى الحجا مالملوك الارض غير حجاه ابداً معقـــلُ
يعدل في الحكم ولكنـــه عن طرق المعروف لايعـــدلُ

وهو شجاع في الوغى ، تهاب منه اسد الشرى واذا تقابلت جحافله مع جيوش الاعداء ، فان اسيافه من لمعها تحيل الليل نهارا :

---

(١) ديوان الحاجري ص ٥.
(٢) فوات الوفيات ١ : ١٦٧.

ليث اذا ماصار في معزل وان له ليث الشرى المشبل
تعيدُ ليل النقع اسيافه صبحاً اذا ماازدحم الجحفل

ويدعو له في ختامها بالسعادة والسلامة وبطول العيش رافلاً في ثوب الهناء :

فاسعد بعيد النحر واسلم له لازلت في ثوب الهنا ترفل (١)

ويمدح موفق الدين الاربلي الأمير زين الدين يوسف صاحب اربل بقصيدة طويله يتذكر في مطلعها داراً بالغضا، وكيف كانت فيما مضى ، ويصفها وقد وقف الركب عليها باكيا ، فاذا هي آثار دارسة ومعالم طامسة بعد ان كانت دار عز كشجرة لايرقى اليها الطير وهي محروسة بكماة شجعان يقطعون الكف التي تمتد اليها بسوء وينتقل إلى الممدوح ويذكر يده الكريمة التي كفته مؤونة السؤال :

رب دار بالغضا طال بلاها عكف الركب عليها فبكاها
درست الا بقايا اسطر سمح الدهر بها ثم محاهـا
كان لي فيها زمان وانقضى فسقى الله زماني وسقاهـا
قـل لجيران مواثيقهم كلما أحكمتها رثت قواها
كنت مشغوفاً بكم اذ كنتم شجراً لايبلغ الطير ذراها
لاتبيت الليل الا حولها حرس ترشح بالموت ظباها
واذا مدت إلى اغصانها كف جان قطعت دون جناها
ان زين الدين اولاني يداً لم تدع لي رغبة فيما سواهـا (٢)

وانظر إلى موفق الدين الاربلي كيف يوفق بين الهلال الجميل ، واميرِ اربل فالأول للظلام زائل، والثاني للمظالم حائل :

تقابلتما فاستجمع الحسن كله فمن نظر يرنو ومن نظر يغضي
هلالان هذا للظلام يزيله سناه وهذا للمظالم في الارض (٣)

(١) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٣٢٤.
(٢) وفيات الأعيان ٥ : ١٠.
(٣) بغية الوعاة ١ : ٢٨٧.

ويمدح ابو الربيع الاربلي الملك الناصر بن العزيز الذي فاق الملوك نوالاً ، وقد ألبسه من العطاء كساء ، وتلافاه من وهدة الفقر نجاء :

ياملیكاً فاق الأنام جميعاً منه جودٌ كالعارض الوكّافِ
والذي راشَ بالعطايا جناحي وتلافي بعد الاله تلافي (١)

ويطالعنا مجد الدين النشابي بقصيدة غريبة ، فانه لايتغزل فيها، ولايصف، بل يأتي على تاريخ الخلفاء العباسيين جميعاً ، ابتداء من أبي العباس السفاح ،وانتهاء بالامام المستنصر بالله، ذاكراً طرفاً من محاسن اعمالهم، وجميل أفعالهم ، ويخيل للقارىء أنها قصيدة في تاريخ بني العباس فانه لايخصص للمدوح الا أبياتاً معدودة منها:

فاليوم برهان النبوة ظاهـــر بخلافة المستنصرِ المستبصـــرِ
سلطانُ كلِّ معجم ومطيلس ومليكَ كلِّ متوّج ومسوّر (٢)

وقد خلا شعر المديح الذي ذكرنا طرفاً منه ، من المعاني الجديدة ،والافكار المبتكرة ، فالمقدمات طويلة لامسوغ لها ، والأوصاف التي حشدت حشداً تنفر السامع وتكسبه الملل والسأم ،وقد خرج الكثيرون عن طريق الفن والابداع إلى مجموعة من الالفاظ والصفات المكررة كالكرم والشجاعة والحكم العادل. رغاض عندهم معين الاسلوب الجزل المتين الذي ارتقى به أبو تمام والبحتري والمتنبي إلى اعلى درجات الفن الرفيع .

والهجاء من الموضوعات التي كثر القول فيها ، ولكننا لانجد فيه مايتناول العرض وقذف المحصنات والسب والشتم الرخيص، بل نجد هجاء فيه شيء من الهزل والسخرية ، وتصوير المهجو بشكل مضحك، يثير انتباه السامع ، او نعته بنعوت مشينة في عرف المجتمع كالغدر والبخل والحمق .

فهذا مجد الدين النشابي ينعت وزير اربل شرف الدين ابن المستوفي بالتوقف واللجاجة والبخل فيقول :

(١) فوات الوفيات ٢ : ٥٧.
(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٢١.

انّ المبارك فيـــــــه توقّفُ ولحـــــــــاجـه
صديقهُ انت مـا لـــــم تعرضْ اليه بحاجـــــــــه (١)

وعندما بلغ سليمان بن بليمان الاربلي أن الشيخ الشاعر محمود بن يوسف التلعفري يلعب القمار هجاه ، قال فيها :

مارأينا ولاسمعنا بشيـــخ قبلَ هذا مقامرٌ بالخفافِ
أسودُ الوجه ، أبيض الشعرِ لكن في سحيم وقبحه وخفـــافِ
يدعي نسبة إلى آل شيبا ن وتلك القبائـــلِ الأشرافِ
مثل نجد لو استطاعت لقالت ليس هذا الدعيُّ من اكنافي
فابسط العذر في هجاء رقيع عادلٍ عن طرائق الانصافِ (٢)

لم يسمع ، ولم ير مثل هذا الشيخ الممسوخ الوجه بالسواد المشتعل الرأس بالشيب ، يقامر بكل مايملك حتى خفافه التي تحميه من اذى الحفاء . انه دعي تتبرأ منه شيبان وتأنف ان يكون منهم وهو رقيع مبتذل ، لذلك فهو غير ملوم على هجائه . وهناك هجاء سلك مسلك العتب والتأنيب ، فمن مستطرف مايرويه صاحب كتاب «الغصون اليانعة» عن خطيب اربل وقاضيها جعفر بن هبة الله ، حينما دخل على احد موظفي الامارة — وكان قد درس الادب والنحو عليه — فلم يلتفت اليه ، ولم يعرف قدره ، فجلس متألماً ، وانشد مشيراً اليه :

هذا مقامي لديك يامَنْ أقـــام دهْراً وراءَ بابي
اقصى أمانيه قربُ اذن في دولة الحسنِ والشبابِ
ان كنت انسيت ذاك فانظر في فرد باب من الكتـــاب (٣)
لاتغتـرر بالزمان يوماً وافكر اذا سرت في الأباب (٤)

---

(١) فوات الوفيات.
(٢) فوات الوفيات ٢ : ٥٧.
(٣) الكتاب : هو كتاب سيبويه ، وفرد كتاب : اي الباب الأول منه ، وهو باب الفاعل الذي يتعدى فعله إلى مفعول ، واليه يلمح.
(٤) الأباب : التهيؤ ، ولعله يريد به الاستعداد لاستقبال الموت.

مخارق الجاه ليس تبقى وموقف العزل كالحسابِ
فافعل على قدر ماتلقى وقل فلا بد من جواب

فلما سمع السلطان مظفر الدين كوكبري صاحب اربل الخبر عزل هذا الموظف ، فقال له القاضي جعفر بن هبة الله : « ارغب من احسان السلطان الا يكدره بأن اكون سبباً لعزل شخص وقطع رزقه، وانا ممن يشتفي بالقول لا بالفعل، فالاشتفاء بالافعال من شيم الملوك، فقال له السلطان أبيت الا أدباً وظرفاً ، وجاء ذلك الرجل فصار من خدامه والمعترفين بانعامه» (١).

ونهج هذا المنهج ابو الربيع الاربلي حينما اشتكى من اولئك الذين لايعاضدونه في محنته ولايؤازرونه في فقره وشجته، فأصبح في أرضهم يسحب ذيل الذل والهوان ، وهم يرونه على مرأى وعيان ، فقرع سن الندم ، لأن هزة الكرم اضحت فيهم كالعدم :

خليلي كم اشكو الى غير راحم وأجعل عرضي عرضة للوائم
وأسحب ذيل الذل بين بيوتكم وأقرع في ناديكم سن نادم
هبوني مااستوجبتُ حقاً عليكم اما تعتريكم هزّةٌ للمكارمِ
كأنّ المعالي ماحللن لديكم وقد اصبحت معدودة في المحارم(٢)

ان اضطراب الحالة الاجتماعية في طبقة كبيرة من المجتمع في اخريات ايام الدولة العباسية ومنها اربل، وسوء امورهم ، والضرائب الجائرة التي لحقتهم والظلم الذي اصابهم من موظفي الجهاز الاداري ، ووصول فريق من الناس إلى مراتب الجاه والسلطة دون استحقاق ، والثراء الفاحش على حساب الآخرين وانتشار الرشوى وارتفاع الاسعار وشيوع الخداع والتضليل والتدجيل .

كل ذلك أثار حفيظة الشعراء ، ودعاهم أن يترصدوا أفعال المسيئين بلسانهم الساخر، يفضحون معايبهم ويكشفون للناس عوراتهم ونقائصهم وينشرون مخازيهم. وقد اتهم ياقوت الحموي الذي زار اربل وأعمالها سنة ٦١٧ هـ مظفر الدين كوكبري بالجور والاعتساف ، فقال : « وطباع هذا الأمير مختلفة متضادة ، فانه

(١) الغصون اليانعة ص ٧٩ .
(٢) فوات الوفيات ٢ : ٥٩ .

كثير الظلم ، عسوف الرعية ،راغب في أخذ الأموال من غير وجهها، وهو مع ذلك مفضل على الفقراء، كثير الصدقات على الغرباء يسير الأموال الجمة الوافرة يستفك بها الأسارى من أيدى الكفار « (١) .

ان الهجاء الذي تحول إلى نقد اجتماعي كثير ولكن لانجد فيه تهجماً على مظفر الدين بل على موظفي امارته ، ومن أجرأ الشعراء في هذا الميدان مجد الدين النشابي ، فانه حمل حملات عنيفة على الموظفين وهجاهم هجاء لاذعاً . فقد كان مشرف ديوان اربل رجلا نصرانياً يقال له يعقوب ، فحبسه مظفر الدين لأمر لم تذكره المراجع ،وولي مكانه نصرانياً آخر يقال له المختص فقال:

فرحنا بيعقوب اللعين وحبسه ... وقلنا أتانا مايطيب به القلب
فلما ولي المختص فالشر واحد ... اذا مامضى كلب اتى بعده كلب (٢)

وبين لنا في أبيات أخرى سوء تصرف الموظفين واستغلال نفوذهم في التحكم برقاب الناس ، فقال :

قد قسمنا الديوان خمسة أقسا ... م عليها لكل قول دليل
رب حق فلا يطاع ومنسو ... ب إلى الظلم قوله مقبول
ثم شخص كأنه الحرف في النحـ ... ـو فلا فاعل ولا مفعول
ومُصِرٌّ على التحيف والظلم ... بعيد عن الصواب جهول
واخو حاجة يمشي أحوا ... لاً لديه ان جاءه برطيل
اتراهم لم يعلموا ان كلاً ... منهم عن فعاله مسؤول(٣)

فالحقوق ضائعة بأيدي اناس جهلة، واسواط ظلمهم وتعسفهم تلهب ظهور الناس والأعمال لا تقضي الا بالرشاوى ، وحسبوا انهم لايصادون ولايقعون في قبضة العدالة ، ولكن خاب ظنهم فان مظفر الدين القاهم في السجن جزاء ماقترفوه بحق شعبه ، فقال مجد الدين النشابي :

---

(١) معجم البلدان ١ : ١٣٨.
(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٧.
(٣) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٦.

جماعة الديـــــوان في ليلة شحط مظلمه
وقد غدت أيدى الوزير منهـــم منتقمـــه
لارحم الله الذي يرحم قومـــاً ظلمـــه (١)

ولم يكتف بعذاب السجن ، بل طلب ان يقتلوا ، ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه ان يجني على حقوق الناس الشرعية ، فقال :

جماعة ديواننا أصبحـــوا - وهم في العذاب لسوء الحساب
فان يك يرجو الوزير الثواب فقتلهم من جـــزيل الثـــواب (٢)

وعندما زار مجد الدين النشابي بغداد ، ورأى تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وانشغال المسؤولين بملذاتهم وملاهيهم ، والتتر آخذة في ابتلاع أجزاء من بلاد المسلمين وهي في طريقها إلى بغداد ، تألم لذلك ، ونظم قصيدة طويلة أوضح فيها افعالهم الرديئة واعمالهم المشينة وحذرهم في آخرها من واقعة لاتبقي ولاتذر ان لم يتخذوا الحيطة والحذر ، منها :

اما الوزير فمشغول بعنبره والعارضان فنساج ومداد
وحاجب الباب طوراً شارب ثمل وتارة هو جنكي وعواد
وابن عباس مغرى باللواط له في كل ناحية علق وقواد
وشيخ الاسلام صدر الدين همته مقصورة لحطام المال يصطـاد
الكفر أضرم في الاسلام جذوته وليس يرجى لنار الكفر اخماد
اين المنية مني كي تساورني فللمنية اصدار وايـــراد
من قبل واقعة شنعاء مظلمة يشيب من هولها طفل وأكباد (٣)

ونرى طه بن ابراهيم الاربلي يتألم ويتأسف لأن اربل أصبحت مفتقرة إلى رجل لبيب يرعى حقوقه الناس ، ويرفه عنهم في المعاش فيطلب من الله ان لايستقيها الغيث مادام حكامها من غير المسلمين :

أأربل ؟ لاسقاك الله غيثا فقد اقفرت من رجل لبيب
ارى العزاء قد ملئت لئاما وقد ضاقت على الشيخ الوهوب

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٦.
(٢) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١٦.
(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٢٠.

فما في مالكيها من معين على صرف الزمان ولا والخطوب
ولا في قاطنيها أريحـــي ولا في ساكنيها من طروب
الا أجرى الاله بليد سوء تحكم فيه عباد الصليب (١)

لقد كان للهجاء — كما رأينا — دوافع عديدة منها الفقر والحرمان او الظلم والهوان ، او انشغال والي الامر عن مصالح العباد باسلوب لايصل إلى درجة الاقذاع والافحاش اللذين نجدهما عند بعض الشعراء الأقدمين .

ولانجد في فن الهجاء الذي ذكرنا نماذج منه صوراً مبتكرة والتفاتات ذكية. وهو نظم تغلب عليه الركة والهلهلة ويختلط بعبارات عامية او الفاظ دارجة .

وللوصف في شعر هذا العصر نصيب وافر، فان الاربليين عاشوا في طبيعة جميله، ينعمون بها ويستمتعون بمناظرها ، فاقبل الشعراء على وصف كل شيء تقع اعينهم عليه فيها ، وهذا الوصف جاء بعضه في قصائد ومقطوعات مستقلة، وبعضه الآخر ضمن الاغراض الأخرى، فان حسام الدين الحاجرى يصف بقصيدة الربيع وازهاره البديعة من نرجس وشقيق وياسمين وسوسن وبنفسج وآس ويشبهها بأشياء محسوسة لطيفة ، ويصف فيها الطير الصادح ، والشجر المتناوح ، والنسيم الهاب العليل، اليك منها هذه الابيات .

لا والربيـــــع النضير وزهـــــــره المستنير
من نرجس وأقـــــاح كأعيـــــــن وثغور
ومن شقيـــــق كحسنا قد اقبلت في حرير
وياسمين كلون الما تيـــــم المهجـــور
وسوسن كنجـــــوم أشرقـــــن في ديجـــور
والآس شبه عـــــذار بخد ظبي غريـــــر
والطير بين هـــديل من جمع وهدير
والغصن ميـــال عطف كشـــارب مخمـــور (٢)

وشبه مجد الدين النشابي البرق الساطع بين السحاب السائر بالفؤاد الخافق

(١) ذيل مرآة الزمان ٣ : ٣٠٥.
(٢) ديوان الحاجري ص ١٤.

وقت انتظار الحبيب الزائر :

والبرق يخفق من خلال سحابه خفق الفؤاد لموعد من زائر (١)

وشبه تتابع وميض البرق بالسلاسل الذهبية اللامعة والسيوف البراقة القاطعة :

كأن ائتلاف البرق من جنباتها سلاسل تبر أو سيوف قواضب (٢)

ويدعو ابو الربيع الاربلي إلى شرب الخمرة ، وطرح الهموم لأن الجو طاب بمجيء أيلول والكأس المترعة تحاكي الشمس في بريقها ، والبدر الجميل قد أسفر عن وجهه النير والأرض قد زهيت بحلتها البديعة وهي مطرزة بأزهارها الأنيقة :

اشرب فشربك هذا اليوم تحليل وانف الهموم فقد وافاك ايلول

أما ترى الشمس وسط الكأس طالعة منيرة ونطاق البدر محلول

والارض قد كسيت بالغيث حلتها وناظر الروض بالأزهار مكحول(٣)

وأغرم بعض الشعراء بوصف الخمرة ومجالسها وسقاتها ، وعابوا الوقوف على الأطلال الدارسة ، وذرف الدموع على أيام الصبا والجمال ، يقول حسام الدين الحاجري :

لأطيب من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللِّوى دارٌ بشرقي أربلِ

وصهباءَ كالمصباحِ في كفِّ شادنٍ رقيق حواشي الخدِّ عذب المقبلِ

يطوف بها كالخيزرانة ساحر الـ ـجفون متى يلحظ بعينيه يقتل

فما العيش الا بين حانٍ وحانةٍ مع الراحِ لابين الدخولِ فحوملِ

إذا أنا لم الثم لكأسٍ من الطلا فما منزلُ اللذاتِ عندي بمنزل (٤)

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٤٤.

(٢) نفسه ١ : ١١٤.

(٣) فوات الوفيات ٢ : ٥٨.

(٤) ديوان الحاجري ص ٤٤.

فالدار الواقعة بشرقيّ اربل ، أطيب عنده من ذكرى حبيب ومنزل ، فيها عقار شفّاف كالمصباح المضيء ، بيد ساق بديع الحسن وضيء ، خدّه أسيل ، وطرفه كحيل ، يتمايل كالخيزرانة ليناً ، ويقتل ناظريه حيناً ، فلا خير في العيش إذا لم يكن بين حان وحانة ، ولاسعادة في منزل لايرتشف فيه كأس الطلا ، إنها دعوة نواسيّة في طلب المتعة ، والانغماس في الملذات ، قبل انقضاء الحياة .

ويطلب العز الاربلي الضرير من نديمه يسقيه حتى يسكر ، ويغنيه حتى يطرب ، فإنّ ذلك عنده خير من تسبيحات النساك ، وتهليلات العبّاد :

قم ياندیمي إلى الابريقِ والقدحِ ... هاتِ الثلاثَ وسلْ ماشبتَ واقترح
وغنِّ إن غادرتني الكأسَ مطرحاً ... وأنتَ ياصاحِ صاحٍ غير مطّرحِ
إني لأفهم في الأوتارِ ترجمةً ... ماليس تفهمُه النسّاكُ في السبح (١)

كما شاع شعر الخمرة ، فقد شاع شعر الزهد والتصوف . وكان له أثر كبير في نفوس الزهاد والمتعبدين ، يرددونه في أذكارهم ومواجدهم التي يقيمونها في تكاياهم المنتشرة في اربل. ولابأس أن أذكر لك ماشاهده ابن خلكان بنفسه حين حضر أحد المجالس التي تُعنى بالذكر والمواجد ، فقال :

«كان عندنا بمدينة اربل مغنّ موصوف بالحذق والإجادة في صنعة الغناء يقال له : الشجاع جبريل بن الأواني ، فحضر سماعاً قبل سنة عشرين وستمئة ، فانني أذكر الواقعة وأنا صغير ، وأهلي وغيرهم يحدّثون بها في وقتها ، فغنّى الشجاع المذكور القصيدة الطنانة البديعة لسبط ابن التعاويذي أولها :

سقاكِ سارٍ من الوسميِّ هتّانُ ... ولا رَقَتْ للغوادي فيلكِ أجفانُ

فلما انتهى من القصيدة ، قام بعض الحاضرين وقال له : ياشجاع ، أعد ماقلته ، فأعاده مرتين أو ثلاثاً ، وذلك الشيخ متواجد ، ثم صرخ صرخة هائلة ووقع

(١) فوات الوفيات ١ : ٣٦٥.

ووقع فظنوه قد أُغمي عليه ، فافتقدوه بعد أن انقطع حسّه ، فوجدوه قد مات ، فقال الشجاع : هكذا جرى في سماعي مرّة أخرى ، فإنه مات فيه شخص آخر » (١).

وتكثر في شعر عرش الدين الاربلي الدعوة لمجاهدة النفس ، وتنزيهها من أدران الدنيا ، لكي تنال رضى الله ومغفرته ، واليك مما قال فيه على سبيل الاستشهاد :

الحمدُ لله إني في مجاهدةٍ ... مما اقاسي وحسبي ذاك يكفاني
ولستُ ابغي سوى عفوٍ ومغفرةٍ ... من الإله إذا ما الموتُ فاجاني
فإنْ بلغت الذي ارجو وآملهُ ... زالتْ همومي وأوجاعي وأحزاني (٢)

ومنهم من سلك طريقة ابي العتاهية فأكثر من الوعظ والارشاد ، والنهي عن المنكر ، وضرب الحكمة والمثل . واليك نموذجاً من شعر عز الدين الحسن بن محمد بن نجا الاربلي :—

هذا الوجود مكدّرٌ ... فانهضْ إلى اصفى وجودِ
واطلبْ مقرَّكَ في العلى ... إن كنت من أهلِ السعودِ
قرب الرحيلُ اليهم ... فمزارهم غير بعيد
فإذا رحلتَ اليهم ... صيرت ذاك اليوم عيد (٣)

وظهرت الحكمة على ألسنة كثير من الشعراء . وهي نظرات في أحوال الدنيا وأحداثها ، ومعرفة عميقة لأخلاق الناس وطبائعهم ، جاءت عن تجربة شخصية ، وثمرة من ثمار العقل الواعي المدرك . وقد عبرت عن واقع المجتمع في ذلك الوقت ومافيه من سلبيات دفعت الشاعر أن يطلقها حكمة ، فهذا علي بن عثمان الاربلي الصوفي ينصح الانسان أن يكفّ لسانه عن تعقيب عيوب الناس والتشهير بها ، وأن لايطرق أبوابهم ، لأنه سوف يقابل بالمثل ، وتلصق به عيوب لا وجود لها عنده :

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣١٧ ، وانظر ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤١٢.
(٢) ذيل مرآة الزمان ٤ : ٨٤.
(٣) نفسه ١ : ٥٠١.

كفَّ عن الناسِ إذا شئتَ أنْ تسلمَ من قولِ جهولٍ سفيه
مَنْ قذفَ الناس بما فيهم يقذفهُ الناسُ بما ليسَ فيه

وكثرت الحكمة على لسانجعفر بن محمد بن محمود الأربلي ، فها هو ذا يدعو من يريد أن ينال الشهرة ، أن يقطع الفيافي والقفار ، ويتحمل من أجلها الصعاب ،فالسيف لاقيمة له إذا بقي محفوظاً في غمده :

وجبِ الفيافي واشتهرْ تَنل المُنى لايقطعُ الهنديُّ حتى يُشْهرا (١)

والمرء إذا برز واعتلى كرسي الرفعة لاتضيره نظرات الحساد ، وطعنات من في قلوبهم لؤم وزيغ وفساد :

فالشمسُ إن شَرفَتْ واشرق نورُها ماضَرَّها الا يراها الأرمد (٢)

وله قصيدة جميلة مزج فيها الحكمة بالعتاب : ـ

لايدفع المرء مايأتي به القدر وفي الخطوبِ إذا فكّرتَ معتبر
وليس يُنجي من الأقدار ان نزلت رأيٌ وحزمٌ ولاخوفٌ ولاحذر
فاستعملِ الصبرَ في كلِّ الأمور ولا تجزعْ لشيءٍ فعقبى صبركَ الظفر
وانَّ معرفتي بالناسِ صادقةٌ انْ ليس فيهم فتىً للودِّ يدَّخرُ
فلا ألومُ امرءً أرثتْ مودَّتُه وخانَ عهداً ووالى صفوه كدرُ
سجيّة الدهرِ غدرٌ بالكرامِ فلا تخصصْ بنيه بلومٍ إنْ همُ غدروا
يا أربليينَ لو أنصفتهمُ ادبي احللتموني حيث الأنجم الزهرُ
فهي فخارٌ لمن يبغي الفخار إذا جاءت بنوالفضلِ بالآداب تفتخر(٣)

اقدار الحياة كثيرة ، ولا حيلة للمرء في دفها ،واللبيب من يطيل فيها النظر ، ليأخذ منها العبرة والعظة ، ومن أراد ان يكسب الظفر فعليه ان

---

(١) نفسه ٢ : ٤٨٣. والبيت الثاني فيه شيء من قول الشاعر :
ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل .
(٢) الغصون اليانعة ص ٨٠.
(٣) نفسه ص ٨٠.
(٤) الجامع المختصر ص ٢٤٤.

يستأنس بالصبر، ثم يعود فيقول : وقد غاض في الناس الوفاء ، ولم يبق فيهم من يؤتمن ليوم الشقاء ، والكرماء يصيبهم الغدر ، ويلاحقهم الكدر ، ثم يعاتب الاربليين لأنهم لم ينصفوه ،ولم يضعوه في المكان الرفيع الذي يستحقه ولو فعلوا ذلك لازدادوا به فخراً ، وارتفعوا به قدراً.

ولم تخل اشعارهم من الإخوانيات التي يرسلون بها لاظهار الشوق والودّ والاخلاص تارة، التهنئة بفرح ، او ابلال من مرض ، اونجاة من مصيبة ، وما إلى ذلك تارة أُخرى ،وهي لاتخلو من غلو ومبالغة مثل قول جعفر بن محمد الاربلي:

ولو أني كتبت بقدر شوقي ... اليك لضاق عن كتبي الفضاء(١)

وقول ابن المستوفي في جواب رسالة:

وافى كتابُك يامولاي مشتملاً ... على رياضِ معانٍ نشرها أرجُ
فكان أحسن من سحرٍ تقلّبه ... أجفان ظبي مراضٍ حشوها غنجُ
إذا بدا قيّد الأبصار منظُره ... فما لأنسانِ عينٍ عنه منعرجُ
فبتُّ اشفي به داءً تضمّنه ... جوانح بات فيها الهمّ يعتلج (٢)

اي رسالة هذه ؟ انها حديقة غنّاء تنشر ازهارها عطراً فوّاحاً ،وهي اسحر من ظبي غرير ، يقيّد الأبصار منظره ،وانها بلسم شاف لما تضمنت جوانحه من هموم .

ولم يبق للحاجري سوى رمق اخير بسبب فراق صديقه ضياء الدن عيسى اخي ابن خلكان . ويطلب منه ان يسرع في كتابة رسالته ،ويرفق معها تعزية لأن الشوق قد اخذ منه ماخذاً ، وربما يميته قبل وصولها:—

الله يعلمُ ماأبقى سوى رمقٍ ... منّي فراقُكَ يامَنْ قربُه الأَمل
فابعثْ كتابَكَ واستودعه تعزيةً ... فربما مُتَّ شوقاً قبل ما يصل (٣)

(١) الجامع المختصر ص ٢٤٥.
(٢) الحوادث الجامعة ص ١٣٥.
(٣) وفيات الأعيان ٣: ٥٠٢.

إن شعر الاخوانيات يغلب عليه التأنق في المعنى ، والإغراق في المحسنات البديعية ، واصطناع العاطفة ، والمبالغة في اظهار الوّد والصفاء ، والاخلاص والوفاء . وقد ساد هذا اللون من النظم كل البلاد الاسلامية ولا يخلو ديوان شاعر منه .

وشاع في امارة اربل الشعر الشعبي ، ونقصد به المنظوم بلغة عامية ملحونة ، وقد تعدّدت الوانه ، وأظهرها القوما والمواليا ، وممن تأثر به من كبار أدباء اربل حسام الدين الحاجري ، من ذلك قوله في مواليا :

يحقّ من قد جعل ذا الحسن ملبوسك وقّع على قصتي باطلاق محبوسك
لولا الفضيحة واحراقي بناموسك كنت الزملك بين الناس وابوسك(١)

الخاتمة

لقد شاهدت معالم الشعر في هذه الجولة القصيرة التي أمضيناها مع شعراء الإمارة البكتكينية في اربل ، فهو يجاري الشعر في الأقطار الاسلامية الأخرى آنذاك في المنهج واللغة والموسيقى الشعرية واستخدام المحسنات اللفظية والمعنوية حتى في استيحاء المعاني والصور ؛ فهم مقلّدون قلما نجد في شعرهم تجديداً أو تطويراً إلا ماندر .

ومما يسترعي النظر في ذلك أن بين الأغراض الشعرية يومئذ الغزل بالمذكر والافراط فيه ، وعدم الاحتشام من ترديده حتى على ألسنة الفقهاء والزهاد . مما يدل أن العصر كله لم يكن متزمّتاً . والغرض الآخر الذي شاع النظم فيه وأقبل جمهور الناس على سماعه لأنه يخصهم ويتولى عرض مشكلاتهم ، هو شعر النقد الاجتماعي ، الذي تولّد نتيجة سوء الأوضاع التي مرت بها الأُمة الاسلامية ، وما اصابها من كوارث ونكبات وهجمات شرسة من الغرب والتتر من الشرق ، وتولي السلطة والجهاز الإداري أناس غير اكفاء .

(١) ديوان الحاجري ص ٧٠.

والغريب في هذه الإمارة ان تخلو ساحة الأدب من الشعر الحماسي ، الذي برز فناً ظاهراً وبغزارة في القرنين السادس والسابع ،وقد شارك المظفر كوكبري ومن قبله اخوه وأبوه في المعارك التي دارت آنذاك في ديار الشام . وبخاصة في تحرير القدس . ويبدو لي أن الأيام قد عدت عليه ، او أنه في بطون الكتب والدواوين التي لازالت محظوظة كتاريخ اربل الذي وصل الينا منه الجزء الثاني فقط .وعقود الجمان لابن الشعار (١).

وأمر آخر نلمسه في هذا العصر هو ميل الناس إلى الشعر الشعبي الذي خرج عن دوائر البحور المعروفة كالدوبيت والقوما والمواليا .. وقد تأتّى ذلك من الثقافة الضئيلة التي كان يصيبها الشاعر من جهة ،وهبوط أذواق الناس وعدم فهم الشعر الجزل الألفاظ الدقيق المعاني من جهة أخرى .

إن خلو ميدان الشعر من الفحول ، نرى كثيراً من أنصاف المتعلمين حالما استقام لهم الوزن في بيت أو عدة أبيات . انطلقوا ينشرونها بين جمهور القراء .وهي على جانب كبير من الركة والضعف ، والعجز عن التصرف في اللغة تصرّف من يملك زمامها ،ويعرف أسرارها . وعدم تأليفها في كثير من الاحيان تأليفاً محكماً ، ونظمها نظماً متساوقاً منسجماً (٢)

إن كان الشعر في هذه الامارة متكلفاً زائفاً في كثير من جوانبه،إلا أنه يضم بين الحين والحين لمحات تصوّر أخلد العواطف الأنسانية كما هو الحال في شعر حسام الدين الحاجري الذي شاع شعره بين محبّي الأدب ، وكان يُوصى بحفظه . يقول ابن حجة الحموي :« اتفق أن الشيخ نور الدين علي بن سعيد الأندلسي الأديب المشهور لما ورد إلى هذه البلاد ، اجتمع بالصاحب بهاء الدين زهير ، وتطفّل على موائد طريقته الغرامية ، وسأله الارشاد إلى سلوكها . فقال له : طالع ديوان الحاجري والتلعفري . وأكثر من المطالعة فيهما .

---

(١) الكتاب في عشرة مجلدات ، وصل الينا منه ثمانية مجلدات محفوظة في مكتبة اسعد افندي في استنبول (رقم ٢٣٢٣ –٢٣٣٠).

(٢) انظر كتاب الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ٥٥٩، ومطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ٨٤، وادب الدول المتتابعة ص ٧٩٩ .

وراجعني بعد ذلك فغاب عنه مدّة ، واكثر من مطالعة الديوانين إلى أن حفظ غالبهما » (١).

لقد أردت في هذا البحث الوجيز أن ابين مكانة هذه الإمارة الصغيرة المغمورة بين الامارات القائمة آنذاك ، والمنافسة الشديدة بينها في اجتذاب العلماء والأدباء ،وما قدّم أبناؤها من عصارة أفكارهم في خدمة الفكر الانساني .

ولي أمل أن يتقبل القاريء هذا العمل المتواضع ، ويعذرني من الاقتضاب ، فإنّ ادب هذه الامارة فيه مجال رحب لمن يريد التوسع والاسهاب .

---

(١) خزانة الأدب ص ٨

المصادر والمراجع

١ ــ آدب الدول المتتابعة : د. عمر موسى باشا. المكتبة العباسية ــ دمشق ١٩٧٢.

٢ ــ البداية والنهاية: ابن كثير، ت ٧٧٤ هـ. مط السعادة ــ القاهرة ١٩٣٢ .

٣ ــ بغية الوعاة: جلال الدين السيوطي، ت٩١١ هـ.تح: محمد أبو الفضل ابراهيم. مط مصطفى الحلبي ــ القاهرة ١٩٦٤.

٤ ــ التاريخ الباهر : ابن الاثير ، ت ٦٣٠هـ. ط دار الكتب الحديثة ــ القاهرة .

٥ ــ تاريخ الموصل: سليمان صائغ. ج٢. المطـ الكاثوليكية ــ بيروت١٩٢٨.

٦ ــ الجامع المختصر: ابن الساعي، ت ٦٧٤هـ. تح: د. مصطفى جواد. المطبعة السريانية الكاثوليكية ــ بغداد ١٩٣٤.

٧ ــ الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر ين أبي الوفاء محمد، ت ٧٧٥هـ. مط مجلس دائرة المعارف العثمانية ــ الهند ١٣٣٢هـ.

٨ ــ الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي في مصر والشام: محمد سيد كيلاني. مط دار الكتاب العربي ــ مصر ١٩٤٩ .

٩ ــ الحوادث الجامعة: عبدالرزاق الفوطي، ت ٧٣٢ هـ. تح:د. مصطفى جواد. مط الفرات ــ بغداد ١٣٥١هـ.

١٠ ــ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية:د. أحمد أحمد بدوي. مط نهضة مصر ــ القاهرة د. ت.

١١ ــ ديوان الحاجري: عيسى بن سنجر الاربلي ت ٦٣٢هـ. المط الشرقية ــ مصر ١٣٠٥هـ.

١٢ ــ ديوان سبط ابن التعاويذي: أبو الفتح محمد بن عبيد الله. تح: مرجليوث. مط المقتطف ــ مصر ١٩٠٣.

١٣ ــ ذيل مرآة الزمان: قطب الدين اليونيني، ت ٧٢٦هـ. مط مجلس دائرة المعارف العثمانية ــ الهند ١٩٥٤.

١٤ — شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي، ت ١٠٨٩هـ. نشر مكتبة القدس— القاهرة ١٣٥١هـ.
١٥ — العسجد المسبوك: الملك الأشرف الغساني، ت ٨٠٣هـ. تحـ: شاكر محمود. مط دار التراث الاسلامي — بيروت ١٩٧٥.
١٦ — الغصون اليانعة: علي بن موسى الأندلسي، ت ٦٨٥هـ. تحـ: ابراهيم الأبياري— مط دار المعارف— مصر ١٩٦٧.
١٧ — فوات الوفيات: ابن شاكر الكتبي، ت ٧٦٤هـ. تحـ: د. احسان عباس. مط دار صادر— بيروت ١٩٧٣.
١٨ — الكامل في التاريخ: ابن الاثير، ت ٦٣٠هـ. مط دار صادر — بيروت ١٩٦٥.
١٩ — كنز الدرر: عبد الله بن أيبك الدواداري، ت ٧٣٦هـ. تحـ: د. سعيد عبد الفتاح عاشور. مط دار الكتب العربية— القاهرة ١٩٧٢.
٢٠ — المختصر في أخبار البشر: عماد الدين اسماعيل أبو الفداء، ٧٣٢هـ. المط الحسينية — القاهرة ١٣٢٥هـ.
٢١ — مرآة الزمان: سبط ابن الجوزي، ت ٦٥٤هـ. جـ٨. مط مجلس دائرة المعارف العثمانية— الهند ١٩٥١.
٢٢ — مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني: د. بكري شيخ أمين. مط دار الشرق— بيروت ١٩٧٢.
٢٣ — معجم البلدان: ياقوت الحموي، ت ٦٢٦هـ. مط دار صادر— بيروت ١٩٥٥.
٢٤ — مفرج الكروب: ابن واصل، ت ٦٩٧. تحـ: جمال الدين الشيال مط دار القلم— القاهرة ١٩٦٠.
٢٥ — نكت الهميان: صلاح الدين الصفدي، ت ٧٦٩هـ المط الجمالية— مصر ١٩١١.
٢٦ — وفيات الأعيان: ابن خلكان، ت ٦٨٤هـ. تحـ: د. احسان عباس. مط دار صادر — بيروت ١٩٧٢.